

المنزَعُ البلاغي في مقدمة تفسير ابن النقيب - دراسة تحليلية -

Rhetorical Analysis in the Introduction of Ibn al-Naqib's Exegesis - Analytical Study

La dimension rhétorique dans l'introduction du Tafsir d'Ibn al-Naqib - Une étude analytique

إسلام ميلاط

المركز الجامعي مغنية - تلمسان

الإرسال : 2024-11-03 القبول : 2024-11-15 النشر : 2025-06-29

الملخص

في سياق المستجدات اللامتناهية التي تشهدها الأمة الإسلامية على مستويات عدة، تبرز الحاجة الملحة للاهتمام بعلوم العربية، فقد أسهمت هذه الأخيرة إسهاما كبيرا في الاضطلاع على أسرار الخطاب القرآني، والوقوف على وجوه إعجازه، وتعدّ علوم البلاغة من آكد علوم اللسان التي ينبغي على المفسر الأخذ بها، والوعي بمسالكها.

ومن ثم فليس بدعا أن يضع ابن النقيب المقدسي لتفسيره مقدمة تبحث في ضروب البيان، ووجوه البلاغة في القرآن، وقد تغيا هذا البحث الكشف عن مواضع الإجادة فيها، وبيان كيفية توصل المؤلف إلى إبراز الفنون البلاغية والأشكال الأسلوبية، مترسّما المنهج التحليلي في رصد الآليات البيانية، وكان من النتائج التي محرّرة : أنّ ابن النقيب أول من أطلق مصطلح «الاحتجاج النظري» على ما يسمى بالمذهب الكلامي، ومنها : حاول تجديد طريقة العرض والتأليف، إذ لم يعتمد على طريقة المدرسة الكلامية في ترتيب المباحث البلاغية وتقسيمها، فقد خرج عن المؤلف بترتيب بديع، وأسلوب جديد، ومنها : أنّه

لم يسلك مسالك المدرسة الكلامية في ترتيب المباحث البلاغية وتقسيمها، بل سلك مسلك ابن الأثير والزمخشري في التذوق والتحليل.

كلمات مفتاحية : البلاغة العربية، ابن النقيب المقدسي، المفسرون، الأساليب، الخطاب القرآني.

Abstract

In the context of the endless developments witnessed by the Islamic Ummah on various levels, the urgent need to focus on the sciences of the Arabic language becomes apparent. These sciences have significantly contributed to understanding the secrets of the Qur'anic discourse and recognizing the various aspects of its miraculous nature. Rhetorical sciences, in particular, are among the most crucial linguistic sciences that an interpreter must embrace and be aware of in their methodology.

Therefore, it is not surprising that Ibn al-Naqib al-Qudsi included an introduction to his tafseer (interpretation) that explores the various types of rhetorical expression and the aspects of eloquence in the Qur'an. This study aimed to uncover areas of excellence in rhetoric and clarify how the author highlighted the rhetorical arts and stylistic forms, following an analytical approach to identify the rhetorical mechanisms.

Among the key findings presented in the research was that Ibn al-Naqib was the first to coin the term «theoretical argumentation» (al-Ihtijaj al-Nadhari) for what is known as the theological school of thought. Additionally, he sought to innovate in the way he presented and structured his work. He did not follow the traditional approach of the theological school in organizing and dividing rhetorical topics ; instead, he departed from the conventional by offering a novel arrangement and method. Furthermore, he did not adopt the typical methods of the theological school for categorizing rhetorical discussions but rather followed the approach of Ibn al-Athir and al-Zamakhshari in their nuanced understanding and analysis of rhetoric.

Keywords : Arabic rhetoric, Ibn al-Naqib al-Maqdisi, commentators, stylistic devices, Quranic discourse.

Résumé

Dans le contexte des développements incessants auxquels est confrontée la communauté musulmane à plusieurs niveaux, il devient urgent de se concentrer sur les sciences de la langue arabe. Ces sciences ont contribué de manière significative à la compréhension des secrets du discours coranique et à la reconnaissance des différents aspects de son caractère miraculeux. Parmi elles, les sciences de la rhétorique sont considérées comme les plus essentielles que l'interprète doit maîtriser et auxquelles il doit être conscient dans sa méthode d'interprétation.

Il n'est donc pas surprenant qu'Ibn al-Naqib al-Qudsi ait introduit son tafsīr (interprétation) par une préface qui explore les différents types d'expressions rhétoriques et les aspects de l'éloquence dans le Coran. Cette étude visait à mettre en lumière les domaines d'excellence dans la rhétorique et à clarifier comment l'auteur a mis en avant les arts rhétoriques et les formes stylistiques, suivant une approche analytique pour identifier les mécanismes rhétoriques.

Parmi les principales conclusions de la recherche, il a été souligné qu'Ibn al-Naqib fut le premier à introduire le terme «argumentation théorique» (al-Iḥtijāj al-Nadhari) pour désigner ce que l'on appelle l'école théologique. De plus, il a cherché à innover dans la manière dont il a présenté et structuré son œuvre. Il n'a pas suivi la méthode traditionnelle de l'école théologique dans l'organisation et la division des sujets rhétoriques ; au contraire, il s'est écarté des conventions en offrant une structure et une méthode nouvelles. En outre, il n'a pas adopté les méthodes classiques de l'école théologique pour organiser les discussions rhétoriques, mais a suivi l'approche d'Ibn al-Athīr et d'al-Zamakhsharī dans leur compréhension nuancée et leur analyse de la rhétorique.

Mots-clés : rhétorique arabe, Ibn al-Naqib al-Maqdisi, commentateurs, styles, discours coranique.

1. مقدمة

الحمد لله وأصلي وأسلم على الرحمة المهداة والنعمة المسداة، سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه واهتدى بهداه، وبعد :

من الظواهر الثقافية التي تستوقف الباحث والمتابع لمسار المعارف التراثية في الحضارة الإسلامية، ذلك التداخل الوثيق القائم بين العلوم التي نشأت في أحضان هذه الحضارة وتطورت فيها، «المعرفة بيني بعضها على بعض، وتتبادل فيما بينها الأخذ والعطاء، وتحقق الانتفاع والجدوى منها، ولذلك تكون الحاجة إلى الاستعانة بعلوم أخرى أصلية أو فرعية لها علاقة بالتخصص» (إبرير، 2020)، ولعل سر هذا الاتصال بين حلقات علوم هذا التراث هو انبثاقها من أصل واحد، حفظ لها عناصر القوة والنمو، فما من علم من العلوم الإسلامية إلا وكان القرآن الكريم المحور الذي يتحرك حوله هذا العلم، فكان كتاب الله القطب الذي تدور حوله العلوم والمعارف.

وهذا التكامل المعرفي بين العلوم العربية الإسلامية بحيث يصعب استغناء بعضها عن بعض له بعد ثقافي، وعمق حضاري، سببه حرص العلماء على تفهم القرآن الكريم المصدر الأول الذي تولدت منه العلوم الشرعية واللغوية، يقول ابن جزي الكلبي في مقدمة تفسيره مبينا أن القرآن الكريم هو القناة التي تصب في مجراها سائر العلوم : «هو المقصود بنفسه، وسائر العلوم أدوات تعين عليه، أو تتعلق به، أو تتفرع منه» (الكلبي، 1995م).

واهتم العلماء بموضوع القرآن الكريم فبدلوا فيه أقصى جهودهم، وكان ذلك أكبر عامل في نضوج فكرة النظم في أذهانهم، (الزهراء، 2022)، ولذا رأى إبراهيم الخطابي أن «القرآن صار معجزا لأنه جاء

بأفصح الألفاظ وفي أحسن نظوم التأليف متضمنا أصح المعاني، ... وتأتي المعاني في العبارات معبرة عنها الألفاظ بقدرة وقوة» (مراد، 1983م).

والمأمل في علوم اللسان العربي يجد أن البلاغة بفنونها الثلاثة كانت ألصق العلوم بعلم التفسير، فهما صنوان لا ينفصلان، وبهما معا كانت تفهم مآلات التنزيل، وتدرك أسرار إعجازه وقوة بيانه، لكن الآصرة القوية بين العلمين بقيت بمعزل عن دراسات علمية تكشف الأستار عن حقيقة طبيعة التداخل بين العلمين، فقد وظف المفسرون معطيات الدرس البلاغي وبثوا فيه الروح والحياة، آية ذلك الكم الضخم من المسائل البلاغية التي نتجت من خلال التطبيق والتحليل على آي القرآن الكريم.

1.1. أهمية الموضوع

يعدّ ابن النقيب المقدسي واحدا من أبرز المفسرين الذين وجّهوا عنايتهم لبيان جمال النظم القرآني، والكشف عن أسرار إعجازه، وذلك من خلال تطبيق علوم البلاغة على الآيات القرآنية، سالكا درب رائد المدرسة البلاغية في التفسير جار الله الزمخشري.

وقد أحسن اقتفاء خطى الأولين، وقد أضاف إليهم بحسّ البلاغي الرائع، وموهبته العالية، من بنات أفكاره واجتهاداته، ما يشهد له بالتفوق في فهم أسرار التراكيب وبلاغة الأساليب. من هنا تأتي أهمية دراسة «المنزع البلاغي في مقدمة تفسير ابن النقيب» للوقوف على قيمته في ساحة الدراسات البلاغية.

2.1. إشكالية الدراسة

لما عنيت هذه المقدّمة باستجلاء براعة النظم القرآني من خلال تطبيق المنهج البلاغي، جاء هذا البحث ليسلط الضوء على قضايا البلاغة الماثوثة

في هذه المقدّمة النفيسة. ومن ثمّ كان الإشكال المحفز للباحث يتفرع في
سؤالين بارزين :

- ما معالم منهجية ابن النقيب في مقارنة فنون البلاغة وتطبيقها في مقدمته ؟
- هل ترك ابن النقيب بصمات واضحة في مجال الدراسات البلاغية والتفسيرية ؟

3.1. أهداف البحث

- يروم البحث الوصول إلى الأهداف الآتية :
- تسليط الضوء على قضايا البلاغة في مقدمة تفسير ابن النقيب، والكشف عن نظراته القيمة، وإضافاته الجديرة بالتأمل.
- تجلية الرابطة القوية المتأصلة بين البلاغة العربية وعلم التفسير، وذلك من خلال الوقوف على منهج ابن النقيب في تحليل الأسلوب القرآني تحليلًا بيانياً بلاغياً.
- التنويه بشخصية مغمورة في علمي التفسير والبلاغة، لم تظفر بما يليق بها من بحث ودراسة.

4.1. خطة البحث

- وقد وزعت خطة البحث إلى مقدّمة، ومبحثين، وخاتمة:
- مقدّمة : في بيان سياق البحث، وإشكاله، وأهدافه، وخطته، ومنهجه العلمي.
- المبحث الأول : التعريف بابن النقيب ومقدمة تفسيره.
- المبحث الثاني : قضايا البلاغة في مقدمة ابن النقيب.
- خاتمة : في استخلاص نتائج الدراسة ورقم التوصيات.

5.1. المنهج العلمي

كان لزاما عليّ في بحثي أن أتبع منهج ابن النقيب وطريقته، وقد كان التحليل أبرز ما اعتمد عليه في مقدمة تفسيره، لأن التفسير في حقيقته تحليل لكلام الله عزّ وجل، كما استعنت بالمنهج الاستقرائي في تتبع الأساليب البلاغية، واستيفاء الكلام عليها في مواضع ورودها.

2. التعريف بابن النقيب ومقدمة تفسيره

1.2. اسمه ونسبه

هو محمد بن سليمان بن الحسن بن الحسين، أبو عبد الله، البلخي الأصل، المقدسي، الحنفي المفسر الشهير بابن النقيب.

2.2. مولده

ولد ابن النقيب بالقدس الشريف في منتصف شعبان سنة إحدى عشرة وستمائة (611 هـ)، ومن المؤسف حقا أن كتب السير والطبقات لم تذكر شيئا عن تفاصيل نشأته وحياته، لكن يبدو في تقديري أنه نشأ في بيت علم وتقوى ودين وصلاح، يظهر ذلك جليا المكانة المرموقة التي وصل إليها هذا الإمام، وفي تراثه العلمي الذي ورثه للأجيال من بعده، وتلامذته الذين انتفعوا به وأجازهم، كل ذلك يدل على أن الرجل أمضى حياته كلها في طلب العلم، ولعل مما يوضح ذلك إقرائه التفسير مع طلابه وختمه عدة مرات، ومن شهد على ذلك تلميذه أبو حيان الأندلسي حيث وصفه بقوله: «وقد شاهدناه غير مرة حين جمعه يقول الناسخ اقرأ عليّ فيقرأ عليه، فيقول: اكتب من كذا إلى كذا، وينقل ما في كتب التفسير التي اعتمدها، ويعزو أكثر المواضع ما ينقل منها إلى مصنف ذلك الكتاب، وكان فيه فضيلة وأدب، وله نثر ونظم متوسط رحمه الله تعالى ورضي عنه» (الأندلسي، 1420 هـ - 1999 م).

ومما يدل على ذلك أيضا تلقيبه بـ"الشيخ الإمام العالم الزاهد" (الذهبي، 2003 م) إلى غيرها من الألقاب الرفيعة التي تدل على عظيم منزلته وغازة علمه.

3.2. رحلاته

ارتحل ابن النقيب إلى القاهرة ودرس بالمدرسة بالعاشورية فترة من الزمن ثم تركها، وأقام بالجامع الأزهر مدة للعبادة، وكان صالحا زاهدا متواضعا، ثم انتقل إلى القدس الشريف فأقام به مدة، وكان الناس يقصدون زيارته بالقدس ويتبركون به، وصرف همته إلى علم التفسير، وصنّف تفسيره الحافل الذي جمع فيه قرابة خمسين مصنفا، وذكر فيه الإعراب والتصريف والبيان والقراءات والحقائق وعلم الباطن، حتى غدا من أكبر التفاسير القرآنية.

4.2. مكانته العلمية

قال الذهبي : «العلامة، الزاهد، الورع ... وكان صالحا، زاهدا، عابدا، متواضعا، عديم التكلف... وكان الكبار يترددون إلى زيارته، ويطلبون دعاءه، وقد صرف همته أكثر دهره إلى التفسير ... وكان الرجل موصوفا بكثرة النقل، وسعة الدائرة» (الذهبي، 2003 م).

وقال ابن كثير : «وكان شيخا فاضلا في التفسير، وله فيه مصنف حافل كبير، جمع فيه خمسين مصنفا من التفاسير، وكان الناس يقصدون زيارته بالقدس الشريف، ويتبركون به» (الدمشقي، د - ت)، وقال عنه السيوطي : «أحد الأئمة العلماء الزهاد» (السيوطي، 1396 هـ).

5.2. مذهبه الفقهي وعقيدته

اتفق من ترجم له أنه كان حنفي المذهب، وأما عقيدته فهو فقد تبين لي بعد استقراء أقواله أنه وإن كان ينتسب لأهل السنة والجماعة إجمالا إلا أنه يميل إلى مذهب الأشاعرة تحديدا، وقد ظهر هذا في بعض الأمور.

كما أنَّ ابن النقيب متصوف يدل على ذلك قول ابن الملتن : «ولبست الخرقه الصوفية من الشيخ المعتقد المعمر رضي الدين أبي محمد الحسين بن عبد المؤمن علي الطبري سبط الإمام محب الدين الطبري، سادس عشر جمادى الأولى من سنة خمس وخمسين وسبعمائة بزاويته ببولاق، قال: ألبسني الإمام، مفتي القرن جمال الدين محمد بن سليمان بن الحسن بن الحسين، عرف بابن النقيب سنة ثمان وتسعين وستمائة» (الملتن، 1415 هـ - 1994 م).

6.2. أشهر شيوخه

من أشهر شيوخه يوسف ابن المخيلي المغربي المالكي (ت 642 هـ)، والشهاب السهروردي (ت 632 هـ).

7.2. تلامذته

علم الدين البرزالي (ت 739 هـ)، أبوحيان الأندلسي (ت 745 هـ)، ابن أسامة (ت 708 هـ)، برهان الدين الجعبري (ت 732 هـ)، محمد بن قاياز الذهبي (ت 749 هـ).

8.2. مؤلفاته

- التحرير والتحجير لأقوال أئمة التفسير في معاني كلام السميع البصير، وهو كتاب عظيم الحجم في تسعة وتسعين مجلدا، قال عنه أبو حيان الأندلسي في مقدمة تفسيره "البحر المحيط" : «واعتمدت في أكثر نقول كتابي هذا، على كتاب التحرير والتحجير لأقوال أئمة التفسير، من جمع شيخنا الصالح القدوة الأديب جمال الدين أبي عبد الله محمد بن سليمان بن حسن بن حسين المقدسي - رحمه الله تعالى - إذ هو أكبر كتاب رأيته في علم التفسير، يبلغ في العدد مائة سفر أو يكاد» (الأندلسي، البحر المحيط، 1420 هـ - 1999 م).

- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، الذي نسب بالخطأ لابن القيم الجوزية، وطبع باسم : مقدمة تفسير ابن النقيب في علم البيان والمعاني والبديع وإعجاز القرآن.

- منهاج العارف المتقي ومعراج السالك المرتقي. وهي قصيدة طويلة جدا وصفها الداودي بأنها تقع في أربعين ورقة (الداودي، د - ت).

9.2. وفاته

بعد حياة حافلة بالعلم والتعليم، وبعد عمر قضى في التدريس والتأليف، توفي الإمام العلامة ابن النقيب -رحمه الله- بالقدس في شهر الله المحرم سنة ثمان وتسعين وستمائة (ت 698 هـ) عن سبع وثمانين سنة رحمه الله.

10.2. تعريف موجز بمقدمة تفسير ابن لنقيب

قدّم ابن النقيب بين يدي فاتحة تفسيره «التحرير والتجوير لأقوال أئمة التفسير في معاني كلام السميع البصير» بمقدمة نفسية غزيرة الفوائد، جهة العوائد، أوضح من خلالها أهمية معرفة علوم اللغة وأساليبها بالنسبة للمتصدي لعلم التفسير، وخاصة علم البلاغة، فهو الكفيل بالكشف عن وجوه الإعجاز في القرآن، والإفصاح عن خفايا معانيه وأساره اللغوية الدقيقة.

يقول ابن النقيب : «وإنما يعرف فضل القرآن من عرف كلام العرب فعرّف علم اللغة وعلم العربية وعلم البيان، ونظر في أشعار العرب وخطبها ومقالاتها في مواطن افتخارها ... فعلم منه تلوين الخطاب ومعدوله، وفنون البلاغة وضروب الفصاحة وأجناس التجنيس وبدائع البديع، ومحاسن الحكم والأمثال، فإذا علم ذلك، ونظر في هذا الكتاب العزيز، ورأى ما أودعه الله سبحانه من البلاغة والفصاحة وفنون البيان، فقد أوتي فيه العجب العجيب، والقول الفصل اللباب» (المقدس، 1415 هـ - 1995 م).

فواضح من هذا، أنَّ علوم البلاغة بأوضاعها هي عمدة المفسر المطلع على أسرار القرآن العظيم، بل هي الركن الأقوم واللازم الأعظم لفحص خفايا الإعجاز، وتذوق براعة التراكيب، وليس بدعا بعد ذلك أن يعود ابن النقيب ليقرر أنَّ «من لم يعرف هذا العلم -أي علم البيان- كان عن فهم معاني الكتاب العزيز بمعزل ولم يقدِّم ببعض حقوق المنزل والمنزل» (المقدسي، 1415 هـ - 1995 م).

ولعلَّه لا غنى لنا هنا بعد الاستعراض السابق لأهمية المعرفة البلاغية في تذوق أسرار لغة الوحي واستجلاء إعجازها، أن نبرز أسف ابن النقيب وغضبه من تقاعس الطلاب على تحصيل هذا العلم الشريف، مع ماله من عظيم المنزلة والمكانة، ولذلك نراه يصفه فيقول: «علم قد عفت آثاره، وقلت أنصاره، وتقاعدت الهمم عن تحصيله، وضعفت الغزائم عن معرفة فروعه فضلا عن أصوله، فما علم من العلوم الإسلامية رمي بالهجر والنسيان ما رمي به علم البيان، ولو أداموا النظر فيه، والتلَّحَّح لمعانيه، لاطلعوا من الكتاب العزيز على خفايا تهش لها القلوب، ودقائق تسفر لهم عن وجوه المطلوب» (المقدسي، 1415 هـ - 1995 م).

وقد كان -رحمه الله- محقا حين غضب على تقصير المقصرين على اجتناء ثمرات علمي المعاني والبيان، فهما خير معين على استجلاء مراد الله تعالى من كلامه، وكشف القناع عن مرامي الخطاب الشرعي، لأنَّ جودة فهم المعاني والدلالات المستكنة في طوايا الآيات القرآنية، متوقف على التسلح بأدوات علوم هذا العلم ومسالكه.

وقد قسَّم ابن النقيب مقدّمته إلى قسمين: مقدّمة وباين اثنين.

أما مقدّمة الكتاب فتحدث فيها عن السبب الذي دفعه إلى تأليفها، وقسّمها إلى باين: الباب الأول: تحدث فيه عن الفصاحة والبلاغة والحقيقة

وذكر بعض مباحث علم البيان من تمثيل ومجاز وكناية واستعارة. الباب الثاني : ما تضمنه القرآن من ألوان البلاغة، وضروب الفصاحة، وعيون البديع، وقسمه إلى قسمين : القسم الأول : ما يتعلق بالمعاني من بلاغة وتناول فيه أربعة وثمانين مصطلحا منها : التناسب والتكميل والتقسيم والتعريض والاستطراد والتورية والإفراط والتلويع والاستخدام والكناية وغيرها. القسم الثاني : ما يتعلق بالألفاظ من فصاحة، تناول خلاله أربعة وعشرين مصطلحا منها : التسجيع والترصيع والاشتقاق والازدواج ورد العجز إلى الصدر والتطريز وغيرها.

11.2. ثناء العلماء على مقدمته

أشاد أبو حيان الأندلسي -تلميذ ابن النقيب- بالمقدمة النافعة الماجدة التي وضعها شيخه لتفسيره التحرير و التحجير، فقد كانت جامعة للمقاصد العظيمة التي تدل على مصدر القرآن وأنه كلام الله، يقول أبو حيان : «وقد صنف الناس في ذلك تصانيف كثيرة، وأجمعها ما جمعه شيخنا الأديب العالم أبو عبد الله محمد بن سليمان النقيب، و ذلك في مجلدين قدمهما أمام كتابه التفسير، وما وضعه شيخنا الأديب الحافظ المتبحر أبو الحسن حازم بن محمد بن حازم الأندلسي الأنصاري القرطاجني مقيم تونس المسمى بمنهاج البلغاء وسراج الأدباء» (الأندلسي، البحر المحيط ، 1420 هـ - 1999 م).

وعلى المهيع نفسه سار الزركشي الذي نقل فكرة أبي حيان مختصرا لها، فقال : «وقد صنف الناس في ذلك تصانيف كثيرة، وأجمعها ما جمعه الشيخ شمس الدين محمد بن النقيب في مجلدين قدمهما أمام تفسيره، وما وضعه حازم الأندلسي المسمى بمنهاج البلغاء وسراج الأدباء (الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 2006 م).

وتبعاً لهذا، يعترف مصطفى صادق الرافعي بجهود ابن النقيب في جمع المادة البلاغية من أمهات كتب التفسير، فيقول : «أما إن أردت أن تعرف

أنواع البلاغة في آيات القرآن والتمثيل لكل نوع فليس أوفى بغرضك من كتاب "الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان" لابن القيم الجوزية المتوفى سنة (ت 751 هـ) - مرر معنا أن هذا الكتاب المنسوب لابن القيم هو نفسه مقدمة ابن النقيب، وقد سها في هذا كثير من الباحثين - وقد جمعه من أمهات الكتب المصنفة في البلاغة، فكان في ذلك الغرض بها جميعاً» (الرافعي، 1955م).

3. قضايا البلاغة في مقدمة ابن النقيب

إنّ المتتبع لمقدمة ابن النقيب يلاحظ اهتمامه بفنون علم البلاغة، فهو يتوقف عند المصطلحات البلاغية، ويتناول الآيات القرآنية محاولاً الكشف عن نكاتها البيانية وسماتها الأسلوبية، وستعرض هنا لنماذج من المباحث البلاغية التي تعرض لها من خلال مقدمته.

1.3. مباحث علم المعاني

1.1.3. الفصل والوصل

احتفى البلاغيون بموضوع الفصل والوصل انطلاقاً من أهميته، وكونه يمثل ركيزة علم البلاغة، ولم يشذ المفسرون عن هذا ومنهم ابن النقيب، فقد خصّ مقدمته بالتنويه بهذا المبحث الذي تعظم الحاجة إليه عند دارسي الإعجاز القرآني، لما ينطوي عليه من أسرار ونكات تكون في الفصل أو الوصل بين الجمل والآيات.

يقول ابن النقيب مبيناً فضل معرفة هذا الركن الركين من علم البلاغة : «هو العلم بمواضع العطف والاستئناف، والتهدي إلى كيفية إيقاع حروف العطف في مواقعها وهو من أعظم أركان البلاغة، حتى قال بعضهم : حدّ البلاغة معرفة الفصل والوصل» (المقدسي، 1415 هـ - 1995 م). ومعنى ذلك أن من عرف الفصل والوصل كأنه استوعب أسرار نظم الكلام وأغراضه، وأحاط بما بين أنساقه من فروق المعاني والدلالات، أو

هو كما فسره عبد القاهر : «أنّه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلاّ كمل لسائر معاني البلاغة» (الجرجاني، دلائل الإعجاز، 1992م).

وقد قصر البلاغيون بحث العطف في هذا الباب على الواو، لأنها مطلق الجمع بين أمرين فلا يكون المقصود محمدا وظاهرا كما يتحدد ويظهر في العطف بالفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب، وثمّ التي تفيد الترتيب والتراخي، لهذا قال ابن النقيب : «واعلم أن فائدة العطف التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه، ثم من الحروف العاطفة ما لا يفيد هذا القدر وهو الواو وهو المراد بالذكر هنا» (المقدسي، 1415 هـ - 1995م).

نلاحظ هنا أنّ العطف بالواو يحتاج إلى دقة في الفهم والتذوق، حيث إنها تقع بين الجملتين فتفصل بين معنييهما فتصير كل جملة ذات معنى مستقل عن الأخرى، فهي لا تفيد سوى الربط بين المتعاطفين، وتشريك ما بعدها في الحكم لما قبلها، أمّا غيرها فتفيد إلى جانب التشريك معاني أخرى تظهر من خلال السياق واضحة جلية.

وبعد ذكر ابن النقيب للعطف وتركه بين المفردات وما في حكمها من الجمل، انتقل لبين مواطن كل من الفصل والوصل، مستعرضا بعض اللامسات البيانية لهذا المبحث، يقول : «وأما قوله تعالى : ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (سورة يوسف : 31)، فيحتمل أن يكون تأكيدا لقوله : ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ (يوسف : 31)، إذ المرتفع عن البشرية من المخلوقات إنما هو الملك، ولأنّ الناس شاهدوا في الإنسان من الخلق الحسن والخلق الجميل ما يعجبوا منه، قالوا ما هذا بشرا لأن غرضهم أن يقولوا إنه ملك، فلما كان ذلك مفهوما قبل التصريح به كان التصريح به تأكيدا، ويحتمل أن يكون صفة له، فإن إخراجها عن جنس البشرية يتضمن دخوله تحت جنس آخر لا تحت الملك على الخصوص، فإن القسمة غير محصورة في النوعين، فجعله ملكا تعيين لذلك النوع وتمييز له عن غيره» (المقدسي، 1415 هـ - 1995م).

2.1.3. النفي والإثبات

عقد ابن النقيب بابا في مقدمته سماه النفي والإثبات، وهو عنده من أرقى أنواع البلاغة، يقول عنه : «وهو -أي باب النفي والإثبات- أعلى ضرب من البلاغة كثير الفوائد عذب الموارد، وقد تكلم فيه أرباب علم الكلام وأرباب علم البيان، وقالوا : إن ثبوت الخاص يدل على ثبوت العام، ولا يدل نفيه على نفيه، وقد بينا أن زيادة المفهوم في اللفظ توجب زيادة الالتذاذ به لحصول جملة من الملاذ دفعة واحدة، ولذلك كان نفي العام أحسن من نفي الخاص وإثبات الخاص أحسن من إثبات العام» (المقدس، 1415 هـ - 1995 م).

ثم مثل له بما جاء في كتاب الله من أمثلة، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ (سورة البقرة : 17)، يقول ابن النقيب في تفسير الآية مبينا بعض أسرارها الجمالية : «ولم يقل بضوئهم، لأن النور أعم من الضوء، إذ يطلق على الكثير والقليل، وإنما يقال الضوء على القدر الكثير، ولذلك قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ (يونس : 5)، وها هنا دقيقة وهو أنه قال ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل "أذهب نورهم"، لأن الإذهاب بالشيء لا يمنع من عود ذلك الشيء بخلاف الذهاب، إذ يفهم من ذلك استصحابه في الذهاب، ومقتضى ذلك منعه من الرجوع» (المقدس، 1415 هـ - 1995 م).

2.3. مباحث علم البيان:

1.2.3. مصطلح البيان

جرى المتقدمون من علماء البلاغة على استعمال لفظة البيان بمعناها الواسع، فهي تدل عندهم على الكشف والإيضاح والفهم والإفهام، يقول الجاحظ : «البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك عن قناع المعنى،

وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصولة كائنا ما كان ذلك المكان البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام وأوضححت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضوع» (الجاحظ، 1423 هـ).

وتابعه على ذلك أئمة البيان على غرار الرماني و الخفاجي والجرجاني وابن الأثير وغيرهم، ولم يخرج ابن النقيب على هذا المعنى الواسع لمصطلح البيان، فمعنى البيان عنده يدل على أمور كثيرة منها علوم البلاغة، يقول موضحا هذا: «وإنما يعرف فضل القرآن من عرف كلام العرب فعرف علم اللغة وعلم العربية وعلم البيان، ونظر في أشعار العرب وخطبها ومقاولاتها في مواطن افتخارها ... فعلم منه تلوين الخطاب ومعدوله، وفنون البلاغة وضروب الفصاحة وأجناس التجنيس وبدائع البديع، ومحاسن الحكم والأمثال، فإذا علم ذلك، ونظر في هذا الكتاب العزيز، ورأى ما أودعه الله سبحانه من البلاغة والفصاحة وفنون البيان، فقد أوتي فيه العجب العجائب، والقول الفصل اللباب» (المقدسي، 1415 هـ - 1995 م). ويقول أيضا في فضل علم البيان، وكونه طريقا موصلا لإدراك إعجاز الذكر الحكيم: «فما علم من العلوم الإسلامية رمي بالهجر والنسيان ما رمي به علم البيان، ولو أداموا النظر فيه، والتلّمْح لمعانيه، لاطلعوا من الكتاب العزيز على خفايا تهش لها القلوب، ودقائق تسفر لهم عن وجوه المطلوب» (المقدسي، 1415 هـ - 1995 م).

لكن المعنى الواسع للبيان الذي استعمله ابن النقيب مرادفا للبلاغة، ضاق عند معاصره السكاكي فصار له مدلول خاص، خالف به اصطلاح المتقدمين، فقام بتقسيم علم البلاغة إلى ثلاثة أقسام: معاني وبيان وما يلحق بهما من محسنات معنوية ولفظية، وقد قال في تعريف البيان: «أمّا علم البيان

فهو معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه» (السكاكي، 1987م) ولم يخرج المتأخرون من علماء البلاغة على هذا التحديد، وصار عندهم مصطلح البيان يقصد به العلم الذي يشمل على الموضوعات الثلاثة : التشبيه والمجاز بأنواعه، والكناية والتعريض.

2.2.3. التشبيه

يعد التشبيه من الألوان البلاغية التي يستعين بها البلاغي لكي ينقل فكرته بوضوح ورسوخ، ويستطيع أن يعبر به عما يجيش في نفسه في طرافة بليغة ومقدار هائل من الخيال الرحب، مما يجعله يخلق في آفاق المعنى مجسدا له كأنه صورة حية واقعية.

وبالعودة إلى المعنى اللغوي فإنَّ الشبه والتشبيه : المثل، وأشبه الشيء : ماثله، وأشبهت فلانا وشابهته وأشبهه عليّ، وتشابه الشيطان واشتبها : أشبه كل واحد منهما صاحبه، والتشبيه : التمثيل، ولعل المبرد كان أول من فتح باب دراسة هذا الفن، وذلك حين قال : «واعلم أن للتشبيه حداً فالأشياء تتشابه من وجوه وتباين من وجوه، وإنما ينظر إلى التشبيه من حيث وقع» (المبرد، 1997م).

وقد ابتدأ ابن النقيب هذا المبحث بالحديث عن اختلاف العلماء كون التشبيه من المجاز أو غير مجاز، يقول رحمه الله : «فالذي عليه جمهور أهل هذه الصناعة أن التشبيه من أنواع المجاز، وتصانيفهم كلها تصرح بذلك وتشير إليه، وذهب المحققون من متأخري علماء هذه الصناعة وحذاقها إلى أن التشبيه ليس من المجاز لأنه معنى من المعاني وله حروف وألفاظ تدل عليه وضعا كان الكلام حقيقة أو مجازا. فإذا قلت : زيد كالأسد، وهذا الخبر كالشمس في الشهرة، وله رأي كالسيف في المضاء، لم يكن مثل نقل اللفظ عن موضوعه فلا يكون مجازا» (المقدس، 1415 هـ - 1995م).

وقد اشتهر بينهم الخلاف في هذه القضية عند المتقدمين، ولعل عبد القاهر كان ممن صرح بأن التشبيه ليس مجاز، يقول في ذلك: «إن كل متعاط لتشبيه صريح لا يكون نقل اللفظ من شأنه ولا مقتضى غرضه، فإذا قلت: زيد كالأسد، وهذا الخبر كالشمس في الشهرة، وله رأي كالسيف في المضاء، لم يكن نقل اللفظ عن موضوعه ولو كان الأمر على خلاف ذلك لوجب أن لا يكون في الدنيا تشبيه إلا وهو مجاز ومحال» (الجرجاني، 1991م). وهكذا، ومن خلال نقل اختلاف العلماء في قضية موقفهم من التشبيه أهو من قبيل المجاز أم غير مجاز، تتكشف لنا خيوط نقل ابن النقيب نصّ عبد القاهر من أسرار البلاغة، وأنه على رأس المحققين المتأخرين الذين قصدهم. ثم يمضي في ذكر حدّ التشبيه وأقسامه وأدواته والفرق بينه وبين الاستعارة، وفي الشرط الذي لا يكون التشبيه حسنا إلا به، وفي تشبيه الشئين بالشيء الواحد، وفيما يجوز عكسه من التشبيه وما لا يجوز، إلى غير ذلك من التفرعات التي ذكرها. ويلحظ في ذلك أنه ناقل عن أرباب هذه الصناعة، مقتف لأثرهم، ليس له رأي مستقل أو خلاف غير مسبوق.

3.2.3. الكناية

تعرض ابن النقيب إلى بيان حدّ الكناية في اللغة والاصطلاح، وأشار إلى أقسامها الثلاثة المشهورة، وإلى اختلاف علماء البيان في التفرقة بين الكناية والتعريض، وتحدث عن الإرداف وفروعه الخمس التي بسط قدامة بن جعفر الكلام فيها، كما تتبع صور الأسلوب الكنائي في القرآن، وهذه بعض الشواهد الدالة على عنايته الفائقة بهذا الموضوع، يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (الإسراء: 29)، فمثل البخل بأحسن تمثيل لأن البخل لا يمدّ يده بالعطية كالمغلول الذي لا يستطيع أن يمد يده، وإنما قال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ ولم يقل: ولا تجعل يدك مغلولة،

من غير ذكر العنق، لأنه قد قال الله تعالى : ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ فكأنه أراد : ولا تجعل يدك مغلولة كل الغل ولا تبسطها كل البسط، فتاب ذكر العنق عن قوله : كل الغل، لأن غل اليدين إلى العنق هي أقصى الغايات التي جرت العادة بغل اليدين إليها (المقدس، 1415 هـ - 1995 م).

والمتبع لمبحث الكناية عند ابن النقيب، يجد أنه وقف على أمثلة عديدة، بين فيها ما يؤديه هذا اللون البلاغي من فائدة في صناعة الكلام، معتمدا على ذوقه وفهمه العميق، كل ذلك بأسلوب رائق، وعرض شائق.

3.3. مباحث علم البديع

1.3.3. حسن الابتداءات

سمي كثير من علماء البلاغة الفن الذي يقدمه المتكلم في ابتداء كلامه ويكون مشتملا على بيّنة أو قرينة تدل على غرضه بحسن الابتداءات، وقد فرّع كثير من المتأخرين من حسن الابتداءات ما سمي ببراعة الاستهلال.

وقد عرف ابن النقيب حسن الابتداءات، فقال : «هو أن يذكر الإنسان في أول خطبته أو قصيدته أو رسالته كلاما دالا على الغرض الذي يقصده ليكون ابتداء كلامه دالا على انتهائه» (المقدس، 1415 هـ - 1995 م) ويتضح من هذا التعريف أنّ حسن الابتداء هو براعة الاستهلال التي أشار إليها المتقدمون، حيث يتأنق المتكلم في أول كلامه بأعذب الألفاظ وأجزها مشعرا بمقصوده، ولكن ابن النقيب فرّق بين المصطلحين تبعا للزنجاني، وفي هذا يقول : «هذا النوع قد قدمناه في فصل حسن المطلع لكن الزنجاني - رحمه الله - أفرد له بابا فأفردناه على حكم ما أفرد، وكان في حسن المطلع زيادات يحتاج إليها فذكرناها ههنا، وهذه الزيادة التي اقتضت إفراده» (المقدس، 1415 هـ - 1995 م).

2.3.3. التضمن والتلميح

هو عند البلاغيين استعارتك الأنصاف والأبيات من غيرك وإدخالك إياه في أثناء أبيات قصيدتك، وهذا المعنى أي قصدك إلى البيت من الشعر فتأتي به في وسط أو آخر شعرك يصدق على ما أطلق عليه البلاغيون مصطلح التلميح، ولذلك عدّه النويري فرعاً من فروع التضمنين، فقالا : «وهو من التضمنين وإنّما بعضهم أفردوه وهو أن يشير في فحوى الكلام إلى مثل سائر أو بيت مشهور أو قضية معروفة من غير ذكره» (النويري، 1423هـ).

وقد عرّف ابن النقيب التضمنين، فقال : «هو أن يأخذ المتكلم كلاماً من كلام غيره يدرجه في لفظه لتأكيد المعنى الذي أتى به أو ترتيب. فإن كان كلاماً كثيراً أو بيتاً من الشعر فهو تضمنين، وإن كان كلاماً قليلاً أو نصف بيت فهو إيداع» (المقدسّي، 1415 هـ - 1995 م).

وأما التلميح فهو «أن يشير في فحوى الخطاب إلى مثل سائر أو شعر نادر أو قصة مشهورة من غير أن يذكره، كقول بشار بن عدي :

اليوم خمر ويبدو في غد خبر والدّهر ما بين إنعام وإيأس
أشار إلى قول امرئ القيس "اليوم خمر وغدا أمر" حين بلغه قتل أخيه وهو يشرب فصار مثلاً» (المقدسّي، 1415 هـ - 1995 م).

ويلاحظ أن ابن النقيب يفرق بين التضمنين الذي يجعله إدراج كلام غيرك في أثناء الكلام لقصد تأكيد المعنى، أو ترتيب النظم، بينما يجعل التلميح إشارة إلى شيء من كلام الغير مع قيد عدم الذكر، وواضح من تفريقه هذا أنّه متابع للزنجاني، الذي سبقه في كتابه المعيار إلى التمييز بين المصطلحين.

3.3.3. فن السؤال والجواب

عرّف ابن النقيب هذا اللون البديعي، بقوله : «هو أن يحكى كلاماً بقال ثم يحببه بقال أيضاً» (المقدسّي، 1415 هـ - 1995 م)، والمراد أن المتكلم

يحكي مراجعة في القول ومحاوره في الحديث بينه وبين غيره في اللفظ معنى وأوجز عبارة سواء أكان ذلك في بيت أو أبيات.

ثم توسع في التمثيل له بالآيات القرآنية، فقال : «وهو في القرآن كثير، ومنه قوله تعالى : ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (24) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (25) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (26) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (28) قَالَ لَنْ اتَّخَذَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (29) قَالَ أَوْلَوْ جِثَّتْ بِشْيءٍ مُبِينٍ (30) قَالَ فَاتِّبِعْ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (31)﴾ (الشعراء 23 - 31).

وأفاض بالأمثلة الشعرية، ثم ختمها بقوله : «قال علماء البيان : «أحسن هذا النوع ما كثرت فيه القلقلة» (المقدس، 1415 هـ - 1995 م).

4.3.3. الاحتجاج النظري

يقصد به الاحتجاج العقلي الذي يعتمد على المعاني الحقيقية، وهذا الأسلوب سماه البلاغيون "المذهب الكلامي" وفد نسبته ابن المعتز إلى الجاحظ، وزعم أنه لا يوجد في الذكر الحكيم وأنه محشو منه.

والاحتجاج النظري هو عبارة عن احتجاج المتكلم على المعنى المقصود بحجة عقلية تقطع عناد المعاند وتوجب الاعتراف له بما ادعاه المتكلم، وتبطل ما أورده الخصم، وهو مأخوذ من علم الكلام الذي هو إثبات الدين بالبراهين العقلية، أو من طريقة أهل الكلام وهي : «أن تكون المقدمات المسلم بها مستلزمة للمطلوب» (التفتازاني، المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، 2013 م).

ومنه قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

(27) ﴿ (الرّوم : 27) وتام الدليل : لكن السماوات والأرض لم تفسدا، فليس فيهما آلهة إلا الله، وقوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء : 22)، أي الإعادة أهون عليه من البدء، فهو أدخل تحت الإمكان، فالإعادة ممكنة.

وكان ابن النقيب المقدسي أول من ابتدع مصطلح الاحتجاج النظري لما سماه البلاغيون بالمذهب الكلامي، نقل عنه ذلك تلميذه أبو حيان الأندلسي في تفسير قوله تعالى : ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ (سورة آل عمران : 154)، يقول أبو حيان : «هذا النوع عند علماء البيان يسمى "الاحتجاج النظري"، وهو أن يذكر المتكلم معنى يستدل عليه بضروب من المعقول، نحو : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء : 22)، ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (يس : 72)، ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ﴾ (يس : 81). وبعضهم يسميه "المذهب الكلامي"، ومنه قول الشاعر:

جرى القضاء بما فيه فلا تلم ولا ملام على ما خطّ بالقلم».

وتابعه على هذا الاصطلاح السيوطي في شرح عقود الجمان، وهذا يدلّ على ابن النقيب كان له تأثير فيمن بعده من العلماء، وفضل عظيم على كتب التفسير والبلاغة، ولولا أن مقدمته كانت ماثلة أمام أبي حيان لكان تفسيره خاليا من كثير من الفضائل والتوجيهات البيانية التي تميز بها عن بقية التفاسير.

5.3.3. فن الاختراع

هو من اخترع الشيء أي ارتجله، والخَرَاع بالتحريك، والخراعة الرخاوة في الشيء، ومنه قيل لهذه الشجرة الخروع لرخاوته، وقيل الخروع: كل نبات

قصيف ريّان شجر أو عشب، وكلّ ضعيف رخو خرع وخريع، والاختراع -عند ابن النقيب- هو أن يذكر المؤلف معنى لم يسبق إليه، وأما اشتقاقه فهو من التلين والتسهيل، يقال نبت خرع إذا كان لنا، فكأن المتكلم سهل طريقته حتى أخرجته من العدم إلى الوجود.

ومما جاء في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (الحج : 73).

ويعقب ابن النقيب على هذه الآية، فيقول : ولم يسمع بمثل هذا التمثيل البديع لأحد قبل نزول القرآن الكريم، ولو سمع لكان القرآن سابقا ولا يكون مثله ولا قريبا منه، وكذلك جميع أمثال القرآن ليس لها أمثال. ومثال ما جاء منه في السنة النبوية قول الرسول ﷺ : ((حمي الوطيس))، فإن الرسول ﷺ أول من تكلم بهذا، والوطيس هو التنور فعبر بشدة حميه ووقوده عن شدة الحرب واتقادها واتقاد نارها حين حمل خالد بن الوليد على الأعداء في غزوة مؤتة.

ومن ذلك قول الرسول ﷺ : ((السعيد من وعظ بغيره))، ومنها أيضا قوله ﷺ ((أما بعد))، وغيرها الكثير الكثير من السنة النبوية (المقدسي، 1415 هـ - 1995 م).

وقد انفرد بمبحث "سلامة الاختراع" من البلاغيين ابن القيم الجوزية، وابن النقيب ناقل عنه في هذا الباب، يقول ابن القيم : «الاختراع هو أن يذكر المؤلف معنى لم يسبق إليه، وأما اشتقاقه فهو من التلين والتسهيل، يقال نبت خرع إذا كان لنا، فكأن المتكلم سهل طريقته حتى أخرجته من العدم إلى الوجود، ومنه في القرآن كثير، من ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (الحج : 73). ولم يسمع

بمثل هذا التمثيل البديع لأحد قبل نزول القرآن، ولو سمع لكان القرآن سابقا ولا يكون مثله ولا قريبا منه وكذلك جميع أمثال القرآن ليس له أمثال» (الجوزية، (د - ت)).

6.3.3. الإلغاز

حين يتتبع الباحث المعاني التي توردها المعاجم اللغوية لمادة "لغز"، فسيجد أن لهذه المادة استعمالات متنوعة، فاللغز الكلام وألغز فيه، عمى مراده وأضمره على خلاف ما أظهره، واللغز : ما ألغز من كلام فشبه معناه، واللغز : الكلام الملبس، وقد ألغز في كلامه يلغز إلغازا إذا ورى فيه وعرض ليخفى، واللغز واللغيزى والألغاز : حفرة يحفرها اليربوع في جحرة تحت الأرض.

وقد أحسن ابن النقيب صنعا حين جلى بفكره الحصيف معنى اللغز في الاصطلاح، فقال : «اللغز الطريق المنحرف. وسمي به هذا لانحرافه عن نمط الكلام، ويسمى أيضا أحجية، لأنّ الحجا هو العقل، وهذا النمط يقوى العقل عند التمرن والارتياض بالإكثار من حلّه وإعمال الفكر فيه» (المقدسي، 1415 هـ - 1995 م).

وقد أطال في إنهاض الأدلة من الشواهد الشعرية على صحة هذا التعريف، والعجيب أنّه ساق أمثلة عليه من القرآن الكريم، وجعل منه ما جاء في أوائل السور من الحروف المفردة والمركبة، وجعل منه قوله تعالى في قصة إبراهيم -عليه السلام- لما سئل عن كسر الأصنام وقيل له : أنت فعلته ؟ فقال : ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ (الأنبياء : 63)، قابلهم بهذه المعارضة ليقم عليهم الحجة ويوضح لهم المحجة.

وسار الزركشي على مهيع ابن النقيب، ونقل هذا الرأي عنه في جعل أوائل السور من الحروف من باب الإلغاز، وهذا الرأي -كما لا يخفى- بيان ووضوح القرآن، فقد الله عز وجل بعيدا عن التعقيد والإلغاز.

7.3.3. التوشيح

ذهب جمهور البلاغيين والنقاد إلى اعتبار معنى التوشيح مساويا لمعنى الإِرصاد والتسهم، وفي تعريف التوشيح يقول قدامة ابن جعفر: «هو أن يكون أول البيت شاهدا بقافيته، ومعناها متعلقا به، حتى أن الذي يعرف قافية القصيدة التي منها إذا البيت سمع أول البيت عرف آخره، وبانت له قافيته» (البغدادى، 1302هـ).

غير أن ابن الأثير خالف ما ذهب إليه جمهور البلاغيين، معرّفا إياه بقوله: «هو أن يبني الشاعر أبيات قصيدته على بحرین مختلفين، فإذا وقف من البيت على القافية الأولى كان شعرا مستقيما من بحر على عروض، وإذا أضاف إلى ذلك ما بنى عليه شعره من القافية الأخرى كان شعرا مستقيما من بحر آخر على عروض، وصار ما يضاف إلى القافية الأولى للبيت كالوشاح، وكذلك يجري الأمر في الفقرتين من الكلام المنثور» (الأثير، 1966م).

وإلى ذلك ذهب ابن النقيب أيضا، فقال في تعريف التوشيح: «أن تكون ذيول الأبيات ذات قافيتين على بحرین أو ضربين من بحر واحد فعلى أيّ القافيتين وقفت كان شعرا مستقيما» (المقدسي، 1415 هـ - 1995م)، غير أن جمعا كبيرا من أهل البلاغة مال إلى أن هذا التعريف يصدق على ما يسمى عندهم بالتشريع، وقد توسط العلوي في المسألة، وقال إنّ التوشيح قد يسمى بالتشريع، حيث قال: «لأنّ ما هذا حاله من الشعر، فإن النفس تشرع إلى تمام القافية وكما لها» (العلوي، 2003).

8.3.3. أسلوب الاستخدام

هو في اللغة استفعال من الخدمة، وكان ابن منقذ أول من عرّفه بقوله: «اعلم أن الاستخدام هو أن تكون الكلمة لها معنيان فتحتاح إليها في فتذكرها وحدها فتخدم المعنيين» (منقذ، 1384 هـ)، وعرّفه القزويني

بقوله : «هو أن يراد بلفظ له معنيان أحدهما ثم بضميره معناه الآخر، أو يراد بأحد ضميريه أحدهما وبالأخر الآخر» (القزويني، د - ت).
وقد سار على هذا المذهب ابن النقيب، ورجع إلى تعريف ابن منقذ ونقله بلفظه، بل إنه أعاد معظم أمثله، يقول ابن النقيب : «الاستخدام : وهو أن تكون الكلمة لها معنيان، فيحتاج إليهما فيذكرها وحدها، فيستخدم المعنيين، كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ (النساء : 43)، والصلاة هاهنا يحتمل أن تكون فعل الصلاة أو موضع الصلاة، وقال تعالى : ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ (النساء : 43) فدل على أنه أراد فعل الصلاة.

ومما سبق، يمكن القول بأن ابن النقيب تبع ابن منقذ في تعريف الاستخدام، كما نقل شواهد التي ذكرها، علما أنها شواهد قليلة فهو فن عزيز، لم يذكر له العلماء أمثلة كثيرة.

وعليه، فإن ابن النقيب اهتم بشكل واضح بالفنون البديعية، فذكر كثيرا منها، متوقفا عند مفاهيمها وأقسامها، ولعل هذا ما يميزه عن سبقه من المفسرين، وهذا الأمر يرجع بالدرجة الأولى للثقافة السائدة آنذاك، إذ كثر الاهتمام في هذه العصور بالتفريعات والتشقيقات والاختراعات في الفنون البديعية.

4. خاتمة

هذه رحلتي مع ابن النقيب المقدسي من خلال مقدمته التي وضعها بين يدي تفسيره، وقد تبين لي أثناء هذا البحث العديد من النتائج العلمية المهمة ومن أبرزها :

- حاول ابن النقيب تجديد طريقة العرض والتأليف، إذ لم يعتمد على طريقة المدرسة الكلامية في ترتيب المباحث البلاغية وتقسيمها، فقد خرج عن المألوف بترتيب بديع، وأسلوب جديد.

- من يقرأ "مقدمة ابن النقيب" تتمثل أمامه حقيقتان : أولاهما : أنَّ مصنفه قد استوعب كل ما دونه علماء البلاغة وأساطين البيان ووعاه، ثم تبنَّاه عن حسن فهم وتدبر وروية، وثانيها: أنَّ مقدمة تفسيره في واقعها تطبيق لقواعد علمي المعاني والبيان، فهو يوضح القوانين البلاغية من آي القرآن الكريم.
- ظهر من خلال البحث تأثر المؤلف بعدد من العلماء أبرزهم الجرجاني، والرازي، والزنجاني، وابن الأثير، وابن أبي الأصبع المصري، كما برز تأثر بعض العلماء بأقوال وترجيحات ابن النقيب كابن القيم، والسيوطي، وابن السبكي، وأبي حيان الذي اعتمد عليه كثيرا في تفسيره البحر المحيط.
- استعمل ابن النقيب مصطلح البيان مرادفا لمصطلح البلاغة.
- تميَّز المؤلف بكونه أول من أطلق مصطلح "الاحتجاج النظري" على ما يسمى بالمذهب الكلامي.

■ المصادر والمراجع ■

- ابن النقيب المقدسيّ. (1995 م). مقدمة تفسير ابن النقيب في علم البيان والمعاني والبدیع، القاهرة : مكتبة الخانجي.
- أبو حيان الأندلسي. (1420 هـ - 1999 م). البحر المحيط. بيروت : دار الفكر.
- أبو يعقوب السكاكي. (1987 م). مفتاح العلوم. بيروت : دار الكتب العلمية.
- إبرير بشير (2020)، جوان، علم العربية لدى عبد الرحمن الحاج صالح. ذخائر اللغة.
- إسماعيل بن كثير الدمشقي. (د.ت). البداية والنهاية. القاهرة : مطبعة السعادة.
- التفتازاني، مسعود بن عمر (2013 م) المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم. بيروت : دار الكتب العلمية.
- الجاحظ، أبو عثمان (1423 هـ) البيان والتبيين. بيروت، لبنان : مكتبة الهلال.

- الزركشي، برهان الدين (1337هـ - 1957م)، البرهان في علوم القرآن. لبنان : دار إحياء الكتب العربية.
- السيوطي، طبقات المفسرين العشرين. القاهرة، مكتبة وهبة، (1396هـ)، أع.
- ابن جزي الكلبي. (د ت)، التسهيل لعلوم التنزيل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- المبرد. م ب. الكامل في اللغة والأدب. القاهرة (1997م)، دار الفكر العرب.
- جلال الدين القزويني. (د.ت). الإيضاح في علوم البلاغة. بيروت : دار الجيل.
- زيوش فاطمة الزهراء. (2022). الأسلوبية فن إنساني ومنهج نقد لساني نشأة وتطور الأسلوبية في الدراسات اللغوية، ذخائر اللغة.
- شمس الدين الداودي. (د.ت). طبقات المفسرين. بيروت : دار الكتب العلمية.
- ضياء الدين ابن الأثير. (1966م). المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. القاهرة : دار نهضة مصر للطباعة والنشر.
- عبد القاهر الجرجاني. (1991م). أسرار البلاغة. القاهرة: مطبعة المدني.
- عبد القاهر الجرجاني. (1992م). دلائل الإعجاز. القاهرة : دار المدني.
- قدامة بن جعفر البغدادي. (1302هـ). نقد الشعر. القسطنطينية : مطبعة الجوائب.
- مصطفى صادق الرافعي. (1955م). تاريخ آداب العرب. القاهرة : دار الكتاب العربي.
- محمد مراد، وليد، (1983م)، نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية، ط1، دار الفكر، دمشق، سوريا.
- منقذ أ، (1384هـ).. البديع في نقد الشعر. القاهرة : وزارة الثقافة والإرشاد القومي.
- يحيى بن حمزة العلوي. (2003). الطراز المتضمن لحقائق علوم الإعجاز. لبنان : المكتبة العصرية.